التفكيكية تغزو العقل المصري

محمد يوسف عدس

في مقال سابق بعنوان " إستراتيجية التفكيك فى الحرب على الإسلام" وَعَدْتُ باستكمال الموضوع في مقال لاحق .. ولعل المتابعون للموضوع يتذكّرون أننى قد أشرت في السابق إلى منظومة الفكر"التفكيكيّ" وعلاقتها بما يطلقون عليه "ما بعد الحداثة" و "ما بعد البِنْيَوِيَّة" كما أشرت إلى صاحب التفكيكية Deconstructionism ومنشئها "جاك دريدا" .. وقلت إن حياته العملية كانت تمثل النموذج الأبرز لليهودي التائه الحاقد فى الشتات ، وأن التفكيكية هي الانعكاس الفكري للشتات واضطراب الهوية وانعدام المعنى وانفصام الدلالات عن مدلولاتها فى اللغة والفكر.. والهوس بفكرة تأويل النصوص بغير حدود ولا موازين ولا كوابح ولا منطق.

لن أثقل على القارئ بالكلام عن ماهية "ما بعد البنيوية" أو "ما بعد الحداثة" ، مكتفيا بتلخيص الخصائص المشتركة بينهما وبين التفكيكية كما فهمتها ؛ فقد أجمع كثرة من النّقّاد على هذه الخصائص: أنها نسبية وعدمية وعبثية ، وأنها تنطوى على تطرّف شديد وميل إلى التعقيد اللغوي .. ورأوا فيها تهديدا للقيم التقليدية والمعايير المهنية العلمية .. وأنها تنطوى على نظرة إلى العالم تتميز بالاعتقاد أن الحقيقة لا وجود لها في أي معنى ؛ حيث تزعم أنها تخلق الحقيقة بدلا من اكتشافها .. وبناء عليه فإن الحقيقة التي تزعمها ثقافةٌ معينةٌ لاوجود لها إلا في إطار تلك الثقافة ، استنادًا إلى لعبةٍ سلطوية ، تحاول الهيمنةِ على الثقافات الأخرى ".

وأضيف أن هذه النزعات الفكرية المتطرّفة لا تؤمن بالثبات ولا باليقين ، ولذلك أقول: إن هذه الخصائص في حدِّ ذاتها- إذا طُبقت على هذه النزعات الفكرية الثلاثة تزعزع ثقتنا فيها ، بل تنسفها نسفًا.

يزعم جاك دريدا ويحاول بتحليلاته أن يثبت لنا أن أي نص ليس كُلًّا متجانسا واحدًا ولكنه ينطوى على معانى متناقضة ، فكل نص لا يمكن فهمه إلا في إطار التأويل وانه بالتالى يخضع للعديد من التأويلات التي لا يمكن أن تقف عند حد معين لأن معنى الكلمة في النص لا يمكن فهمه إلا في علاقته بمعانى الكلمات الأخرى التي يحتويها النص ولأن المعانى خاضعة للتأويل المستمر وإذن فلا توجد مرجعية ثابتة يتوقف عندها لتحديد المعنى .. هناك انفصام تام بين الدال والمدلول لأي كلمة من كلمات اللغة ، فالعلاقة مفقودة على الإطلاق.

لذلك ينتهى بتحليلاته التأويلية إلى حالة يمكن وصفها بـ"التَّوْلَة" كما نستخدمها في اللغة العامية الدارجة ونقصد بها وصفًا لحالة التيه والضياع التى لافكاك منها.. ويعبّر عنها "دريدا" بكلمة Aporia وهو مصطلح يشير به إلى حالة الشك والحيرة والعجز عن اتخاذ أي قرار؛ فلم تعد اللغة وسيلة للتفاهم والتواصل بين البشر .. وأن أي نص لا يحمل معانٍ واحدة ثابتة مفهومة عند جميع الناس ، بل معانى متعددة بعدد من يقرأوه ، ومتغيرة أيضًا عند الفرد الواحد ، لا بحسب خلفياته الثقافية فقط ، ولكن أيضًا بحسب تطوره الفكريّ واختلاف مشاعره باختلاف حالاته النفسية.

والأدهي من ذلك أنه يقول: إنها جميعًا -رغم تناقضها- صحيحة .. والاستنتاج الذى يريدك أن تصل إليه هو أن مؤلف النص ليس هو الذى يحدد معنى النص لقارئه ، بل المتلقّى هو الذى يفعل هذا؛ فهو الذى يملك تفسيره أو تأويله .. وهكذا يتحول النص الواحد إلى نصوص كثيرة بعدد قُرّائه ؛ وكأنهم أصبحوا هم المؤلفين ، أما المؤلف الأصلي فيقول التفكيكيون أنه يفقد علاقته بالنص فور انتهائه من كتابته ونشره .. وتطبيقًا على الإنجيل شاع بين التفكيكيين فكرة أن الإله قد مات .. وهكذا فهم المسيحيون الغربيون كتابهم المقدس فنبذوه .

ولم تعد المسألة اجتهادات مبعثرة أو آراء شخصية فقد أنشأ التفكيكيون منهجًا له أصول وقواعد تطوّرت وجوه استخداماته حتى أصبح جزءًا من علم اللاهوت ، وسمّوْه " الهِرْمينوطيقَا ، ويعرّفونه بأنه فن تأويل وترجمة الكتاب المقدس ..

فالتأويل الهرمينوطيقي يشكل لُبّ الفلسفة الدينية ، ويقوم بمهمة مزدوجة ذات شقّين متمايزين:

(١) نزع الطابع الأسطوري، واالمقصود بالأسطورة هنا "التفسير ما قبل العلمي للنظام الكوني والأخروي، والذي صار غير معقول للإنسان المعاصر ولهذا اقتضي الأمر تجاوز الغيبيات والمعجزات.

(٢) نزع الزّيْف ، وهذا ما حاول أن يقوم به: فرويد بنظرية المُثل والأوهام ، ونيتشه بجنيالوجيا الأخلاق ، وماركس بنظريته فى الإيديولوجيات ؛ فقد أراد هؤلاء الثلاثة من عمالقة "الهدم" والتفكيك فضح الزيف من خلال شكهم في العقائد الدينية والثقافية ..

أزعم أن الفكر التفكيكي -كما مارسه وعرضه جاك دريدا في كتاباته - ذو خلفية لاهوتية يهودية ، وبالتحديد كان مصدره "التأويل القباليّ" للنص التوراتي ، وهو في الحقيقة يستبطن عناصر حلولية تفسيرية للهِرْمينوطيقا التي باشرها الحاخامات استنادًا إلى التلمود، الذى كتبوه بأيديهم ليحل في قداسته مكان التوراة ، بل ليصبح أكثر قداسة من الكتاب المنزّل .

وتقوم "صوفية القبالاة" اليهودية على ثلاثة أفكار أساسية تؤكّد رؤيتها لصيرورة الخلق، كما يلي:

تبدأ أسطورة الخلق بعملية الانكماش [إنكماش ماذا؟ ولا تعجب..!] فهم يقصدون انكماش الألوهية وتعني في لاهوتهم : انسحاب نتج عنه تمحورٌ وتكثيف ، فالإله المتخفّي ينكمش داخل نفسه ، كأنه ينفي نفسه بنفسه إلى داخل نفسه ، ثم يرسل شعاعا من نوره الذاتي في التجليات النورانية العشرة ، وهذه المرحلة تسمى مرحلة الفيض الإلهي على الكون ، أدت إلى ظهور آدم "قدمون" (الإنسان الأصلي) ، وهو غير آدم أبو البشر، ثم تتجلى بعد ذلك أشعة النور الإلهي من الإنسان الأصلي في شكل شرارات كان من المفترض جمعها في أوعية لكن هذه الأوعية تحطمت أثناء ملئها ، الأمر الذي أدى إلى تشتت الشرارات الإلهية وتبعثرها.

ومنذ حادثة التهشّم هذه لم يعد في الكون شيء كامل .. لتأتي مرحلة إصلاح الخلل الكوني؛ وهي عملية تخليص الشرارات الإلهية االمتناثرة، وتعتمد بالدرجة الأولى على جماعة إسرائيل، وهي عملية تدريجية تتوج بظهور الماشيّح، وعودة إسرائيل من المنفى إلى فلسطين .. وتنتهى هذه المرحلة بِتَوَحُّدِ الإله مع نفسه ، بعد تجميع الشرارات المتناثرة منه.

في ضوء هذه العقيدة، يمكن الحديث عن مفاهيم دينية يهودية في تراث القبالاة الصوفي الحلولي، قريبة في بنيتها من مفاهيم ما بعد الحداثة، مثل مفهوم " تهشم الأوعية" و"الانكماش" و "الإصلاح" ، وهي مفاهيم توحِي بأن الإله لم يكمل عملية الخلق بعد ، بل إن الذات الإلهية لم تكتمل بعد ، وهو ما يعني أن العالم في حالة صيرورة دائمة لا تعرف الثبات، أو كما يقول دعاة ما بعد الحداثة: لا يوجد حضور كامل وأن الغياب مثل الحضور.

وينتهز المتصوفة القباليون هذه الحالة السائبة فيقتحمون خضم هذه الحركة الاكتمالية المتسمة بالصيرورة ، بوصفهم أصحاب الشرعية في مساعدة الإله على اكتساب صفاته ، ولقد أدّى هذا الاعتقاد ، إلى ظهور حالة من التعددية المفرطة ، التي تؤدي إلى اختفاء المركز؛ حيث تصبح كل الأمور نسبية وتغيب المرجعية والمعيارية، فتفسد اللغة كأداة للتواصل بين البشر؛ إذ ينفصل الدال عن مدلوله وتطفو الدوالّ وتتراقص دون منطق واضح. في ضوء هذا ، تتحدد عملية التلاعب في سلطات الإله المعزول، عند القباليين: وأقصد التلاعب بمعاني النص المقدس، وتطويعها خدمة لتصوراتهم الصوفية. وكل ذلك يحدث من خلال اعتماد آلية تفسيرية تأويلية مهرطقة للغة.

يرى القباليون المتأولون أن "كل كلمة في النص المقدس تمثل رمزا، وكل علامة أو نقطة تحوي سرًّا جُوّانيًّاً، ومن ثم تصبح النظرة الباطنية هي الوسيلة الوحيدة لفهم أسرارها .. كما يقول القبلانيون أن الأبجدية العبرية تنطوي على معان خفية ، لا يعرفها إلا الخبراء بالقبالاة. وبذلك تصبح كلمات التوارة مجرد علامات أو دوال، تشير إلى قوى ومدلولات كونية وكينونات خفية يستكشفها مفسر النص ويشكلها بحسب هواه".. وهكذا تم تفجير اللغة ؛ حتى يتسنى للأحبار التلاعب بالمعاني والتوسع فيها..

ونتيجة لهذا الانقلاب على قيم النص الديني، ، تنتقل السلطة من خالق النص (الاله)، إلى المفسر القباليّ (ومن بعده إلى القارئ التفكيكي)، لتبدأ عملية سطو واضحة على النص المقدس .. ثم على النص الأدبي والفكري ، بكل ما ينطوى عليه من مقاصد وحقائق ومعاني، وتُفتح باب الدلالات اللانهائية على مصراعيها.

وهكذا يتحول التفسير الصوفي اليهودي إلى نوع من الهرطقة ، أو ما يُعْرف بـ"الهرمينوطيقا المهرطقة"، وهي العبارة التي استخدمها ، الدكتور عبد الوهاب المسيري- وصفًا لمحاولة نُخبةٍ من اليهود تفكيك النص المقدس بدعوى تفسيره.. ويشرح لنا الدكتور المسيري سر هذه المحاولة المهرطقة ؛ بأنها مؤامرة من الداخل باسم التفسير، وهي في واقع الأمر تقويض:

إنها فرض اللامعنى بوصفه هو المعنى، وفرض الظلام بوصفه هو النور، وفرض الهرطقة بوصفها هي الشريعة ؛ إنها عملية قلب كامل للمعنى تتم بهدوء ومن خلال الخديعة.. وهكذا، لايظهر التلمود باعتباره كتاب تفسير فحسب بل ليصبح كتابا مقدسا يفوق في قداسته الكتاب المقدَّس (التوراة الأصلية التي جاء بها موسى من ربه) ؛ ولكن هذا الكتاب الأكثر قداسة مكتوب بيد إنسانية، فهو مطلق غير مطلق، ثابت متغير، إنه الحضور بلا حضور والغياب بلا غياب! ..وبناء عليه، يصير التفسير القبالي ، مغيِّبًا لأي إمكانية حقيقية لتحقُّق المعنى. فهو يعمل على ترصّد مزالق النص وهفواته ، محيلا المعنى إلى سلسلة من التأويلات غير المستقرة، في حركة تذوب فيها الثنائيات وتؤجَّل المعاني إلى ما لانهاية.

لعلنا قد أدركنا الآن أن التأويل الهِرمينوطيقي للكتاب المقدس الذى تبنَّاه اللاهوتيون اليهود وعلى رأسهم متصوفة القبالة ، هو بعينه ما تبنّاه جاك دريدا ليقيم دعائم فلسفته التفكيكية، في مجالات الفكر واللغة على أوسع نطاق، ولم يكن هذا بغريب عليه ، فحياته العملية نفسها كانت انعكاسًا صادقًا للتفكُّكِ والتَّشتُّت والتمزق والغربة .

عاش جاك دريدا غربة اللغة الأم ، فقد كان ينتمى قهرًا للغة الدولة التي عاش في كنفها وهي اللغة الفرنسية .. وكان هذا مصدر شعوره بالتمزق وضياع الهوية، ودافعه إلى صياغة استراتيجية عدوانية شرسة ، لتفكيك هذه اللغة ومعانيها وطروحاتها الفكرية .. وكأنه كان ينتقم من اللغة الفرنسية ، لأنها مارست عليه هيمنةً واستلابًا ، على غرار ما فعله القباليون اليهود بالنص الديني، انتقاما من الإله الذي شردهم في آفاق الأرض، وجعلهم عالة على الشعوب والأمم الأخرى..!

وإلى هذه الحقيقة يشير الدكتور عبد الوهاب المسيري بقوله: "إن هامشية دريدا جعلته مرشحا لأن يكون فيلسوف التفكيك الأول، فهو نفسه إنسان مفكك تماما: فهو فرنسي ولكنه من أصل جزائري، وهو جزائري ولكنه عضو في جماعة استيطانية فرنسية ، وهو يهودي سفاردي لا ينتمي إلى التيار الأساسي لليهودية، وهو لا يؤمن بهذه اليهودية ولا يكنُّ لها أي احترام- ولكنه مع هذا يشير إليها دائما.." ولذلك ينتهى عبد الوهاب المسيرى إلى هذه الخلاصة لحقيقة الشخصية التفكيكية لجاك دريدا فيقول: "إذا كان هناك دال بدون مدلول، فإن جاك دريدا الفيلسوف الفرنسي الجزائري اليهودي السفاردي هو -نفسه- هذه الحالة ، فهو ليس فرنسيا ولا جزائريا ولا يهوديا ولا سفارديا..! ".

أرجو أن تكون محاولتى في تبسيط هذه النظرية المعرفية المعقدة قد نجحت في تقريبها إلى ذهنك ، فإذا لم تكن محاولة ناجحة ، فإنّى أقترح عليك أن تعيد قراءة المقال في فسحة أكبر من الوقت لأهمية الموضوع .. أو أن تدع الأمر جانبًا لبعض الوقت فقد يكون إعادة التأمل فيه كافية لإلقاء الضوء على الأفكار والمعانى الجديدة وغير المألوفة التي احتشدت في حيز ضيق من هذا المقال ..

ولن يضيرنا أن نركز الآن على الخلاصة التي قدمها لنا الدكتور عبد الوهاب المسيري عندما تحدث عن "الهرمينوطيقا المهرطقة" وصفًا لمحاولة نُخبةٍ من اليهود القباليين واللاهوتيين

تأويل النص التوراتي المقدس بأنها مؤامرة من الداخل باسم التفسير، وهي في واقع الأمر تقويض له .. وقال في هذا- كما أشرنا من قبل: إنها فرض اللامعنى بوصفه هو المعنى، وفرض الظلام بوصفه هو النور، وفرض الهرطقة بوصفها هي الشريعة ؛ إنها عملية قلب كامل للمعنى تتم بهدوء ومن خلال الخديعة.

ولنجعل من هذه الحقيقة نقطة انطلاق لبحث مدى تطابق جهود المهرطقين العرب والمصريين بصفة خاصة في تأويل النص القرآني تأويلا مهرطقًا ، وإلى أي حد نفذت الفلسفة التفكيكية إلى عقول فريق من رجال الدين المنسوبين زورًا إلى الإسلام ، وغيرهم من المهرطقين .. رغم أن أحدًا منهم لم يتحدث مطلقًا عن التفكيكية ، وربما أن بعضهم لم يسمع عنها ، وإنما اكتفى بتطبيق ما تدرّب عليه من مهارات اكتسبها في لقاءات وحلقات وبرامج مخططة لإفساد عقائد المسلمين الدينية.. خصوصًا في ظل هيمنة الطغمة الانقلابية على الحكم .. هذه الطغمة المُهَرْطِقَة التي اتخذت موقفًا معاديًا من الإسلام ومن دعاة الإسلام ، جعلها تفتح الباب على مصراعيه في إعلامها الرسمي للملحدين والمهرطقين ، الكارهين للاسلام ولنبيه وتاريخه وحضارته..!

myades34@gmail.com

(نشر بجريدة الشعب في شهر يناير ٢٠١٧م)